

عصر الخفاء في مصر الاستعمارية

## الحاكم بأمر الله

- ٣ -

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الحاكم بأمر الله صبياً في نحو السادسة عشرة حيناً بدأ يضطلع بمهام الدولة على هذا النحو ؛ بيد أن هذا الفتى القوي النفس ، كان حاكماً حقيقياً يقبض على السلطة بيديه القويتين ؛ ويشرف بنفسه على مصائر هذه الدولة العظيمة ، ويبدى في تدير شؤونها نشاطاً مدهشاً ، فيباشر الأمور في معظم الأحيان بنفسه ، ويتولى النظر والتدبير مع وزرائه<sup>(١)</sup> ؛ وهكذا كان الأمير الياقع يؤثر العمل المضي على مجال الفؤ واللمب التي يغير تيارها من كان في سنه ، وفي مركزه وظروفه ؛ وقد لزم الحاكم

(١) راجع ابن الصبري - الإشارة إلى من ناله الوزارة من ٢٦

لها مصابيح فيها الكهر باسطلت بضيء من نورها ليلناز والسيف ورق النسيم وراق الجو ، فتذكرت قول القائل :  
يا نسيها هب مسكاً عبقاً هذه أنفاس ربياً جليقاً  
لكنني ماكدت أنشق هذ الأنفاس العطرات وأعرق في  
بجر من التأملات حتى فتح الخادم مذباغ مصر فأسمنى ألماناً  
شجية حملها أنفاس القاهرة الكهربائية ، فذكرت شتاء مدينة  
المز وعهدى به قريب ، ورددت قصيدة لي ودعت بها تلك  
الدينة الساحرة ، منها الأبيات الآتية في نبات النيل :

أواه يا نبات النيل ساجيةً كم ضمك الصدر شهيقاً ووزقاراً  
وكم تمطرت بالريحان وامتزجت رباك بالروض أفناناً وأزهاراً  
مالن نشقتك حتى خلت منتشكاً ماء الحياة جرى في الجسم أنهاراً

وخفق القلب لشتاء مصر ولربيع دمشق معاً ، فكلاهما  
ساحر جذاب ، وكلاهما مجتلي ذكريات عذاب ، وفي البلدين  
رفاق وصحاب ، وأهل وأحباب ، وفيهما للثقافة العربية أفسح رحاب

دمشق

مصطفى الشرباشي

هذا النشاط المضي طوال حياته . وكان الحاكم ذا بنية قوية متينة ؛ وكان منذ حداثة يتمتع بمظهر الجبارة : مبسوط الجسم ، مهيب الظلمة ، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة ، ونظرات حادة مروعة كمنظرات الأسد لا يستطيع الانسان صبراً عليها ؛ وله صوت قوى مرعب يحمل الروح إلى سامعيه ؛ وقد كان في الواقع سليل نسل من الجبارة الصحراويين الأقوياء ، الذين يذهبون في زهرة العمر والقوة<sup>(١)</sup> ؛ وكان أبوه العزيز بالأخص عظيم القامة عربض المنكبين قوى التكون<sup>(٢)</sup> ، فورث عنه ولده هذه الخواص الطبيعية البديعة ، ولم يبددها في شهوات النفس التي ينغمس فيها أبناء القصور

وهنا يبدأ عصر الحاكم بأمر الله حقاً ، وهو أعرب عصر في تاريخ مصر الاسلامية ، وربما كان أعرب عصر في تاريخ الاسلام كله ؛ عصر يمازجه الخفاء والروح ، وتطبعه ألوان من الاغراق والتناقض مدهشة مثيرة معاً ؛ ولكن هذه الألوان الخفية المرفقة ، وهذه النواحي الثابتة هي التي تسبغ على العصر أهميته وطرافته ، وهي التي تحيط شخصية الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات يصعب اختراقها . ويحسن قبل أن نعرض إلى درس هذه الشخصية العجيبة وقبل أن نحاول استجلاء غوامضها ، واستقراء حقيقتها ، أن نستعرض أولاً أعمال الحاكم وتصرفاته ، وحوادث العصر وظروفه ؛ ثم نحاول على ضوءها أن نتفهم روح العصر ، ونفسيه تلك الشخصية الفريدة التي أفاضت عليه من خفائها وروعيتها ، وملأته بنشاطها ونزعاتها وأهواؤها ، وتبوأت فيه المقام الأشمى

- ٥ -

تقدم الرواية الاسلامية لنا الحاكم في صور مروعة مثيرة ؛ فتقدمه لنا أولاً في صورة جبار منتقم ، وسفاك لا يخجو ظمؤه إلى الدماء ؛ ثم تقدمه لنا في صورة طاغية مضطرم الأهواء والنزعات ، متناقض الرأي والتصرفات ، لا تكاد تلمس لأعماله باعثاً أو حكمة ؛ شرساً جوحاً ، ميالاً إلى الشر ، خؤوناً وافر القدر ، لا يستقر على ثقة أو صداقة ؛ وتقدمه لنا على العموم

(١) يلاحظ أن العزيز أبا الحاكم توفي في الثالثة والأربعين ، وأن جده المز توفي في السادسة والأربعين ، وأن النصور والد المز توفي في الثانية والأربعين ( راجع الفريرى ج ٢ ص ١٦٣ و ١٦٧ )

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ٤٠

البأس والعصبية ، وهي رغبة يدل عليها كما سنرى في مواطن كثيرة ؛ وكانت كتامة أقوى القبائل المغربية كما قدمنا ، وكان ابن عمار أقوى زعماء الدولة . ولكن سنرى من جهة أخرى أن الحاكم يسرف في القتل ، فيقتل وزراءه وعلماؤه بناهاً ، دون حكمة ظاهرة إلى ما كان من زعة مؤقتة أو سخط جنائي

وفي سنة ٣٩٣ هـ قتل الحاكم وزيره نهد بن ابراهيم بعد أن قضى في منصبه زهاء ستة أعوام ، وأقام مكانه علي بن عمر العداس ، ولكن لم تعض أشهر قلائل حتى سخط عليه وقتله ، وقتل معه الخادم ريدان الصقلي حامل المظلة ، ثم قتل عدداً كبيراً من العلماين والخاصة <sup>(١)</sup> ( سنة ٣٩٤ ) ، ثم تبع ذلك بمقتلة أخرى كان من ضحاياها الحسين بن النعمان الذي شغل منصب القضاء منذ سنة ٨٩ ، وعدد كبير من الخاصة والعامه ، قتلوا أو أحرقوا <sup>(٢)</sup> ؛ وقتل جماعة من الأعيان صبوراً <sup>(٣)</sup> ؛ ولم يك ريب في أن هذه المذابح التتوالية كانت عنوان زعة خطيرة إلى البطش والفتك واحتقار الحياة البشرية ؛ وكان أشد الناس تضرعاً لهذه النزعات الخطرة ، أقرب الناس إلى الحاكم من الوزراء والكتاب والعلماين والخاصة ، ولم يكن الكفاة أيضاً بمنجاة منها ، فكثيراً ما عرضوا للقتل الذريع لأنزل الريب والذنوب ، أو لاتهمهم بمخالفة المراسيم والأحكام القرية الصارمة التي توالى صدورها في تلك الفترة . وكان رجال الدولة ورجال القصر وسائر العمال والتصرفين يرتجفون رعباً وروعاً أمام هذه الفورات الدموية ؛ وكان المجتمع القاهري ، ولاسيما التجار وأرباب المصالح والمعاملات يشاطرونهم ذلك الروع ؛ ويروى لنا السبحي صديق الحاكم ومؤرخه فيما بعد ، أن الحاكم أمر في سنة ٣٩٥ بعمل شونة كبيرة مما يلي الجبل ملكة بالسنتط والبوص والحلقة ، فارتاع الناس وظن كل من له صلة بخدمة الحاكم من رجال القصر أو الدواوين أنها أعدت لاعدائهم ، وصرت في ذلك اشاعات تخيفة ، فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين والتصرفين من المسلمين والتصارى في أحد ميادين القاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر ، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون ، ويسألون

في ثوب شخصية بغيضة خطيرة ، فاقدة الرشاد والتعقل ، يقاب عليها الجانب الأسود ؛ ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحي الخير والخلال الحسنة ، فتصفه لنا بالجوود والتشف والزهدي في كثير من متاع الحياة الدنيا

« كانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجبن وإحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل إلى الإصلاح وقتل الصلحاء ؛ وكان الغالب عليه الصلاح ، وربما نخل بما لم ينخل به أحد قط » <sup>(١)</sup> . « وكان جواداً ، سمحاً ، خبيثاً ما كراً ، ردي الاعتقاد ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبوراً ؛ وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها » <sup>(٢)</sup> . « وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل ، والاخافة والأمن ، والنسك والبدعة » <sup>(٣)</sup> . في هذه الصور وأمثالها تقدم الرواية الإسلامية إلينا الحاكم ؛ ولا ريب أن في حياة الحاكم وفي أعماله وتصرفاته ما يبرر كثيراً من هذه الأوصاف الثيرة ؛ غير أنها ليست كل شيء في هذه الحياة العجيبة الغامضة ؛ ومن الخطأ أن نقف عندها في تصوير الحاكم والحكم عليه ، ومن الواجب أن نتقصى في حياة الحاكم جوانب أخرى ، وأن نحاول تفهم شخصيته ونفسيته على أضواء أخرى افتتح الحاكم عهد حكمه بقتل برجوان وصيه ومدبر دولته ؛ وكان للجريمة باعث سياسي قوى ؛ فلم تكن يومئذ دليلاً على حبه للسفك أو ظمئه إلى الدم ، غير أن الحاكم ما لبث أن أتبع ضربته بضربة دموية أخرى هي مقتل ابن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق ؛ وكان الحاكم قد سماه من برجوان وأطلق له رسومه وجراياته ، وأذن له بالكوب إلى القصر ؛ ففي ذات مساء ، حين انصرافه من القصر ، انقض عليه جماعة من العلماين الترك كانت قد هيئت للفتك به ، فقتلوه وحلوا رأسه إلى الحاكم (شوال سنة ٣٩٠) <sup>(٤)</sup> ولم تكن للجريمة باعث ظاهرة ، ولكننا نستطيع أن نملاها برغبة الحاكم في سحق الزعماء ذوي

(١) ابن قزويني في مرآة الزمان (راجع النجوم الزاهرة ٤ من ١٧٦)

(٢) ابن خلكان (ج ٢ من ١٦٦) والذهبي (راجع النجوم الزاهرة

٤ من ١٧٨)

(٣) ابن خلدون (ج ٣ من ٦٠)

(٤) القرظي (ج ٣ من ٥٨)

(١) القرظي — ج ٤ من ٦٩

(٢) القرظي ج ٣ من ٣٢

(٣) النجوم الزاهرة (ج ٤ من ٢١٢)

عفا عنهما وأعيد عبد العزيز الى منصبه ، ولكنهما لم يطمئنا الى هذا العفو الريب ، فقرا بأمرنيهما ، فأمر الحاكم بمصادرة أموالهما ، وسير الخيل في طلبهما ، وأنفذ اليهما كتب الأمان ؛ فمادا الى القاهرة بعد أن استوثقا من الخليفة بالأمان والعفو ، واستمرا يركبان الى القصر مدى حين ؛ وفي ذات يوم استبقيا بالقصر « لأمر تريده الحضرة » ثم قتلا فجأة ( ١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٠١ ، وسودرت أموالهما ، وعاد الحاكم بعد ذلك فأمّن أولاد القتيلين وخلع عليهم <sup>(١)</sup>

واليك طائفة أخرى من حوادث القتل والسفك التي أمّن فيها الحاكم : في سنة ٣٩٩ ، قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الفلّان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر ، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا ، وقتل فضل بن صالح من أعظم قواد الجيش وفي العام التالي وقتت مقتلة أخرى بين الفلّان والخدم ، وقتل جماعة من العلماء السنة <sup>(٢)</sup> ؛ وقبض على صالح بن علي الروذبادي لأسابيع قلائل من عزله ، وقتل ؛ وعين مكانه ابن عبدون النصراني ، ثم صرف وقتل لأشهر قلائل ؛ وخلفه أحمد بن محمد القشوري في الوساطة والسفارة ، ثم صرف لأيام قلائل من تعيينه وضربت عنقه ( سنة ٤٠١ ) . وللحاكم قصة دموية مروعة مع خادمه غين وكاتبه أبي القاسم الجرجاني ، وكان غين من الخدم المعقابة الذين يؤترهم الحاكم بعطفه وثقته ، فبينه في سنة ٤٠٢ للشرطة والحسبة ولقبه بقائد القواد ، وعهد اليه بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية ، وعهد بالكتابة عنه الى أبي القاسم الجرجاني وكان الحاكم قد سخط على غين قبل ذلك ببضعة أعوام وأمر بقطع يده فصار أقطع اليد ؛ ثم سخط عليه كره أخرى وأمر بقطع يده الثانية فقطعت وحملت الى الحاكم في طبق ، فبعث اليه الأطباء للنناية به ووصله بحال وتحف كثيرة ؛ ولكن لم تمض أيام قلائل على ذلك حتى أمر بقطع لسانه ، فقطع وحمل الى الحاكم أيضاً ، ومات غين من جراحه (جمادى الأولى سنة ٤٠٤) ، وأما أبو القاسم الجرجاني فقد أمر الحاكم بقطع يديه لوشاية صدرت في حقه ، ولكنه أبقى على حياته ، وعاش أقطع اليدين <sup>(٣)</sup>

(١) القرظي - ج ٣ ص ٢٣ ، ٢٤

(٢) القرظي (ج ٤ ص ٨٨)

(٣) النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٢٢٣)

العفو عنهم ؛ ثم دخلوا القصر ، ورفعوا الى أمير المؤمنين عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر رقعة يلتمسون فيها العفو والأمان فأجابهم الحاكم على لسان الحسين الى ما طلبوا ؛ وأمروا بالانصراف والبكور لتأني سجل العفو . واشتد الذعر بالفلّان والخاصة على اختلاف طوائفهم ، فضجوا واستنابوا وطلبوا العفو والأمان فأجيبوا الى ما طلبوا ؛ وتبهم في الاستفانة التجار وأرباب المهن والحرف ؛ وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطوائف ؛ وقد أورد لنا السجى صورة أحد هذه الأمانات ونصها : « هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله : إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبيننا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ؛ وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال ، لا خوف عليكم ولا عهد بسوء اليكم ، إلا في حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك ، وليعول عليه إن شاء الله تعالى ؛ وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة . . الخ » <sup>(١)</sup>

وهكذا هبت على المجتمع القاهري ريح من الرهبة والخشوع ، وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى الذي لم يجاوز يومئذ العشرين من عمره ، وأصبحت زعامة وتصرفاته مثار الرعب والروع . ولم يك ثمة ريب في أن القتل كان في نظر الحاكم خطة مقررة ، ولم يكن فورة أهواء فقط ؛ وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طول حياته ؛ ووقعت في الأعوام التالية حوادث ومناظر من القتل الذريع لانهاية لها ، وكانت تقترن أحياناً بضروب مروعة من القسوة ، ولما كان ينادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم ، وفي الأحوال النادرة التي كان ينجو المزلول فيها بحياته ، كانت تلازمه نعمة الحاكم حتى يهلك . ففي شعبان سنة ٣٩٨ هـ عزل قائد القواد الحسين بن جوهر ، وعين مكانه صالح بن علي الروذبادي ولقب بثقة ثقات السيف والقلم ؛ وبعد أسابيع قلائل أمر الحاكم الحسين وصهره قاضي القضاة عبد العزيز ابن النعمان بلزوم دارهما ؛ ثم أمر بالقبض عليهما ، ففر الحسين وقبض على عبد العزيز ؛ واضطربت القاهرة لمكانة الحسين ، ثم

(١) القرظي - ج ٣ ص ٢٢ ، ٢٣